الفصل الرابع

ما قبل حكام الطوائف

- ولاية بني حمود.
- محمد بن عبدالرحمن المستكفي.

obeikandl.com

obeikandl.com

ولاية بني حمود

علي وقاسم أبناء حمود بن ميمون أدارسة يرجعون في نسبهم إلى الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وينتمون إلى البربر ولاءً وثقافة، فهم يتكلمون لغتهم ويحاربون بجانبهم، وقد كانوا ملوكاً على فاس في المغرب، وكان علي بن حمود قد ولي حكم سبتة، أما أخوه الأكبر القاسم فكان على الجزيرة الخضراء، وطمع علي في حكم قرطبة فوجد أنَّ أكبر عون له ربما يحصل عليه من قبل فتيان العامريين أعداء سليمان المستعين، وكان كبيرهم اسمه خيران. فكاتبه في الأمر وأظهر له كتاباً يدعي فيه أنَّ هشام المؤيد قد عهد له بولاية العهد من بعده، وأنَّ هشاماً المؤيد أرسلها إليه سراً قبل استيلاء المستعين على قرطبة، وأعلن علي بن حمود دعوته للمؤيد وأنه قادم إلى قرطبة لإعادتها إلى حاكمها الشرعي هشام المؤيد، وكان هذا الخليفة الدمية مادة للاستغلال، وتولى مقاليد الأمور في اختفائه وظهوره وحياته وموته.

انضم إلى علي بن حمود الحسني عدد من البرابر الناقمين على المستعين بالله مثل: زاوي بن زيري، وحبوس الصنهاجي، وتقابل الجيشان بالقرب من قرطبة، وانهزم جيش المستعين وتم أسره مع أبيه الحكم وأخيه عبدالرحمن.

ودخل علي بن حمود الحسني قصر قرطبة، وبحث عن الخليفة هشام المؤيد ظناً منه أنه محتجز لدى الخليفة سليمان، وربما يعلم أنه قد مات أو قتل وإنما أراد استغلال اسم هذا الخليفة المقهور.

بعدما علم علي بن حمود بقتل الخليفة هشام المؤيد أو ربما وفاته أمر بقتل الخليفة سليمان وأبيه وأخيه وأعلن وفاة المؤيد ودعا لنفسه بالبيعة، وسمى نفسه الناصر لدين الله، وحاول مجتهداً إبعاد زعماء البربر حتى يتحرر من قيودهم، وقرب أهل قرطبة مثل أبي الحزم بن جهور وأحمد بن برد، لكن خيران الفتى العامري عندما علم أنَّ هشاماً المؤيد قد مات أو قتل وأنَّ الأمر آل إلى بيت حسني النسب بربري الولاء لن يكون له فيه نفوذ وسلطان كما هو الحال في عهد هشام المؤيد الأموي، رأى أنه من الأنسب له الخروج على الخليفة الجديد علي

ابن حمود بمن معه من حشود في الشرق، وأنْ يختار أحد بني مروان رمزاً لهذه الغاية، فوقع اختياره على عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن الناصر ولقبه بالمرتضى، وسار بمجموعة مبتدئا بغرناطة، فلقيه حاكمها زاوي بن زيري فانهزم عبدالرحمن المرتضى وقتل، وهرع خيران إلى أحد حلفائه في الشمال للاستنجاد بالنصارى.

قال ابن حيان: «فحل بهذه الوقيعة على جماعة الأندلس مصيبة أنست ما قبلها، ولم يجتمع لهم جمع بعد، وأقروا بالإدبار، وباؤوا بالصفار».

كان لهذه الواقعة الأثر الكبير في سلوك علي بن حمود الذي انصرف عن أهل قرطبة ومن ضمنهم أبو الحزم ابن جهور، وشاء الله تعالى أن عزم بعض من فتيان القصر على التخلص من الخليفة فقتلوه وهو في الحمام، فسارع البربر إلى الاتصال بالقاسم بن حمود وكان والياً على إشبيلية وقدم إليهم وبايعوه بالخلافة، وتلقب بالمأمون، فلجأ إلى العبيد من إفريقيا فاعتمد عليهم لعلهم يخففون عنه قبضة البربر، لكن يحيى بن علي بن حمود ابن أخ الخليفة الجديد رأى أنه الأحق بالخلافة فجمع جمعه وقدم بجيشه لانتزاع الخلافة من عمه القاسم، فحاول القاسم حقن الدماء، وتوسط بكبار زعماء البربر للتوفيق فيما بينهم غير أنه عجز عن ذلك، وأمام إصرار ابن أخيه آثر العافية وانسحب حقناً لدماء المسلمين، وغادر إلى إشبيلية فدخل يحيى قرطبة وتسمى بالخليفة المعتلي، فرأى القاسم في إشبيليه أن يبقي نفسه خليفة، وتلقب بالخليفة المستعلي، ومن الغريب أن كل منهما اعترف بالآخر.

ولم يدم الأمر للخليفة يحيى حيث ثار عليه البربر وأعادوا عمه الخليفة القاسم من إشبيلية إلى قرطبة، لكن أصبح طوع أيديهم، ثم ثار أهل قرطبة على القاسم، وانتصر أهل قرطبة، وفرَّ القاسم مع جمع من أعوانه قاصداً إشبيلية، لكن محمد بن إسماعيل بن عباد قاضي إشبيلية وجدها فرصة للتخلص من الخليفة القاسم، فأغلق أبواب إشبيلية وأخرج أبناء القاسم إليه، فذهب إلى بلده «شريش» وهناك حاصره ابن أخيه الخليفة المخلوع يحيى، فكان حصاراً من خليفة مخلوع لعمه الخليفة المخلوع، وتم النصر ليحيى على عمه، فأودعه السجن مع بنيه، ومن بعد ذلك تم خنقه في سجنه وهو في الثمانين من عمره.

أمـا قرطبة فقد اختارت عنوة عبد الرحمن بن هشـام بـن الحكم خليفة جديداً اتخذ لنفسه لقب المستظهر بالله، وأمه أم ولد تسمى «غايه»، وهو أديب وشاعر، ومن شعره:

طال عمر الليل عندي ... مذ تولّعت بصدّي
يا غزالاً نقض العهـ ... ـد ولم يوف بوعد
أنسيت العهد إذ بتـ ... ـنا على مفرش ورد
واجتمعنا في وشاحٍ ... وانتظمنا نظم عقد
ونجوم الليل تحكي ... ذهباً في لازورد

وكان المستظهر قد قـرَّب إليه الكثير من وجوه القوم مثل أحمـد بن برد، وابن حزم، وابن شهيد، وأكثر من وضع الدواوين، قال ابن حيان واصفاً تلك الحال:

«وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصـل، ومراتب نصبت على غير طائل، تنافسـوها طالبوهـا، يومئذ بالأمل، فلـم يحلوا منها بنائل، ولا قبضـوا منها مرتزقاً، ولا نالـوا منهـا مرتفعـاً، وغرهم بارق الطمع وسـط بلد محصـور، وعمل معصـوب، خراب مسـتول، ومع سـلطان فقير، لا يقع في يده درهم إلا من صـبابة، مسـتغل جوف المدينة، أو نهـب مفلول ممن تقلقل عنها، يقيم منـه رقعة، ويفرق حملته على من تكنفه من جنده ودائرتـه، ويتطرق إلى ما يقبح من ظلم رغبته، فلم يلبث الأمر أن تفرَّى به فسُـفِك دمه، وانحسم الأمل من دولته».

ومـن طرائف توليتـه أنَّ قادة قرطبة قد رأوا أن يتم الاختيار بين ثلاثة من بني مروان هم سـليمان المرتضى، ومحمد بن العراقي، وعبد الرحمن بن هشام الناصري «المستظهر بالله»، وكان العزم معقوداً على تولية سليمان المرتضى؛ وقد أعلنت البيعة والخطب لذلك، فتأخر عبد الرحمن بن هشـام وفاجأهم بجيشـه فلزموا طاعتـه، وكان أحمد بن برد قد كتب العقد باسم سليمان المرتضى، فلما علم بدخول عبد الرحمن بن هشام وانتزاع الأمر بالقوة ورأى مبايعة أبناء عمه له، حك اسـم سليمان المرتضى وكتب اسم عبد الرحمن بن هشام، وهذه من عجائب الأندلس ومآسيها في تلك الحقبة من الزمن.

obeikandl.com

كان عمر الخليفة الجديد عبدالرحمن بن هشام يوم توليه ثلاثة وعشرين عاماً، وكانت الآمال معقودة عليه، غير أنه وفد إليه بعض من البرابرة فاستقبلهم، وكان أهل قرطبة قد فاضت قلوبهم بالحقد عليهم واستوطنت الكريهة سويداء قلوبهم، فكان هذا الاستقبال ذريعة استغلها ابن عمه محمد بن عبدالرحمن بن الناصر لنيل الخلافة وقتل المستظهر.

فقد تقدم محمد بن عبدالرحمن إلى القصر ومعه عامة أهل قرطبة الحاقدين على البربر، فهرب من استطاع الهرب ممن كان داخل القصر، وقتل كثير ممن لم يستطع الهرب، أما المستظهر فقد دخل الحمام وانزوى في أحد زواياه فقبض عليه وثيابه قد علقها الكدر من وسخ الكنيف، وقدم إليه ابن عمه محمد بن عبدالرحمن الملقب بالمستكفي فقتله شر قتلة، ولم يمض على توليه الخلافة سوى خمسة وأربعين يوماً.

كما تم سبي أهله، وهذه مأساة من نوع جديد لم تعرف قط قبل ذلك، فكيف تسمح مروءة محمد بن عبدالرحمن المستكفي بأن تستحل حرائر بني أمية ليذهب بهنَّ السوقة واللصوص إلى منازلهم سبياً، لكنه مؤشر على مآسي الأندلس التي خبت فيها كثير من القيم التي أمرهم بها دينهم حتى أصبح سبي بنات الخلفاء من قبل الدهماء أمراً مباحاً على مرأى ومسمع خليفة جديد لم يكن بينه وبين ابن عمه من العداوة والبغضاء ما يستحق القتل فما بالك بانتهاك حرمات نساء بني مروان.

obeikandl.com

محمد بن عبدالرحمن المستكفي

قال ابن حيان: «بويع محمد بن عبدالرحمن الناصري يوم قتل عبدالرحمن المستظهر يوم السبت لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع عشرة وأربعمائة، فتسمى بالمستكفي بالله، اسماً ذُكِرَ له فاختاره لنفسه، وحكم به سوء الاتفاق عليه لمشاكلته لعبدالله المستكفي العباسي – أول من تسمى به – في أفنه ووهنه وتخلفه وضعفه، بل كان هذا زائداً عليه في ذلك، مقصراً عن خلال ملوكيةٍ كانت في المستكفي سميّه، لم يحسنها محمد هذا لفرط تخلفه على اشتباهه في سائر ذلك كله: من توثبهما في الفتنة واستظهارهما بالفَسَقَة، واعتداء كل واحد منهما على ابن عمّ ذي رَحِمٍ ماسَّة، وتوسط كلٌ واحد منهما في شأنه بامرأة خبيثة، فلذلك حسناء الشيرازية، ولهذا بنت سكرى المورورية، فأصبحا في ذلك على فرط التنائي عبرة».

وقال صاحب كتاب نقط العروس: «ومن العجب اتفاقهما في الأخلاق، وفي العمر، واللقب، وأنَّ كل واحد منهما خُلع عن الأمر، وكل واحد منهما تركه أبوه صغيراً».

قال ابن حيان: «ولم يكن هذا المستكفي من هذا الأمر في ورد ولا صدر، إنما أرسله الله تعالى على أهل قرطبة محنة وبلية، إذ كان منذ عُرف غُفْلاً عُطُلاً منقطعاً إلى البطالة، مجبولاً على الجهالة، عاطلاً من كل خُلّةٍ تدُل على فضيلة، عضَّتهُ الفتنة فأملق حتى استجاز طلب الصَّدقة، رأيته أيام الخسف بأهل بيته في الدولة الحمودية ولم يكن ممن لحقه الاعتقال لتحقير أمره، يقصد أهل الفلاحة أَوَانَ ضمهم لغلاَّتهم يسألهم من زكاتها تكليماً ومخاطبة».

وبالجملة في تلخيص التعريف بأمره أن أجمع أهل التحصيل أنه لم يجلس في الإمارة مدة تلك الفتنة أسقط منه ولا أنقصُ، إذ لم يزل معروفاً بالتخلف والركاكة، مشتهراً بالشرب والبطالة، سقيم السر والعلانية، أسير الشهوة، عاهر الخلوة، ضداً لقتيله عبدالرحمن المستظهر في اللبّ والمعرفة، وكان افتتح هذه السنة المؤرخة القاسم بن حمود بخلافته، واختتمها هذا المستكفي المذكور، وكان بينهما عبدالرحمن المستظهر القتيل، فتصرمت تلك السنة النكدة عن ثلاثة خلفاء، وهذا من غريب الأنباء، ولله البقاء السرمدي.

Obeikandi.com

وقُلِّدَ هذا المستكفي الأمر ولم يكن من أهله، فتلقى جميع الناس بالإيناس، واستمالهم بالأهوية، ورأى أنَّ المال عزيز، فظن البشر الرخيص يقوم مقامه أو ينوب منابه، فكان يقول للناس أجمعين: ارتعوا كيف شئتم، وتسموا بما أحببتم من الخطط، فتسمى بالوزارة في أيامه مفردةٌ ومثناةٌ أراذل الدائرة، وأخابث النظار، فضلاً عن زعانف الكتاب والخدمة، وأما الشرطة العليا وما دونها من رفيع المنازل، فحملها كثير من التجار والعامة، وانثال الناس على ابتغاء هذه المنازل عند السلطان بالطماعية في كرَّةِ الدولة، فغشوا بابه، وعمروا فناءه، وتعللوا بالمعنى، فلما استبانوا ضعفه رفضوا خططهم، وتبرَّأَ كثيرٌ منهم منها، وأقسم أنه لم يتقلدها، ولا سيما عند تكرر التقسيط عليهم للغرامة عند إلحاح الإضافة، فجرت لبعضهم عند الانتفاء عن تلك الخطط نوادر ظريفة مضحكة، وانتهى هذا التنوية العام بهذا الملك الهمام إلى أن فضه أيضاً في طبقات أهل العلم، فأسهم منهم الفقهاء، فآثر العلية منهم المشاورين أصحاب الفتوى بالإرقاء إلى خطة الوزارة، خالطاً بهم فيها زعانف الخدمة، وكبار الدائرة والنظار، وجاؤوا في ذلك بطامة لم تسمع في الأعصر الخالية، فأخطؤوا وألحقوا بالدين وصمة، وطلبوا زيادة المُعتلى على العامة، ففتنوا بهذه الخطة، وشدُّوا أيديهم عليها، وهجروا من حطهم في الخطاب عنها، مُعرضين بما يعاب من ذلك، إلى أن مضوا بسبيلهم، وارتقى المستكفي أيضاً بكثير ممن يحمل المحابر، ويدرس مسائل الدفاتر من أصاغر الطبقة الفقهية إلى ما بلغت عليتهم من منزلة الشورى، فوسم كافتهم بوسم الفتوى، فأسرف في ذلك حتى بلغ عددهم بقرطبة يومئذٍ إلى الأربعين، وذلك ما لم يُعهد في الغابرين.

وكثر الإرجاف بتغيير رجال الدائرة، فاضطربت قرطبة لكثرة من كان فيها من المردةِ، فقبضَ على جماعة من بني عمه وحاشيته منهم علي بن أحمد بن حزم، وعبدالوهاب ابن عمه، وسجنوا بالمطبق، ثم عاجل المستكفي ابن عمه عبدالعزيز العراقي، فخُنِقَ وأمسى ميتاً ونعاهُ إلى الناس فلم يخف عليهم اغتياله.

وفي أيام المستكفي هذا استؤصل بقية قصور جده الناصر بالخراب، وطمست أعلام قصر الزهراء، واقتُلع نحاس الأبواب ورصاص القُنِيّ، وغير ذلك من الآلات، فطوى بخرابها بساط الدنيا، وتغير حسنها، إذ كانت جنة الأرض، فعدا عليها قبل تمام المائة

من كان أضعف قوة من فأرة المسك، وأوهن بنية من بعوضة النمرودة، والله يسلط جنوده على من يشاء، له العزة والجبروت».

وبعد أن ضاق أهل قرطبة ذرعاً بالمستكفي، لجأ نخبة من المفكرين والأعيان ومن هؤلاء الوزير والشاعر أبو عامر بن شهيد إلى يحيى بن علي بن حمود الحسني بجالة، ووصفوا له الحالة، وألحُّوا عليه بإنقاذ قرطبة من الهلاك على يد المستكفي، فتمنَّع ثم تردد ثم أقدم على المضي إلى قرطبة، وعندما قدم يحيى بن علي طلبوا من المستكفي التخلي، فاستعطفهم بلين القول ثم غادر القصر مستخفياً في زي امرأة، وسار متجهاً إلى الثغر مع نفر من أصحابه، فاغتاله بعض مرافقيه ظناً منهم أنه يحمل مالاً كثيراً.

قال صاحب الذخيرة: «فخرج على وجهه وقد لبس ثياب الغانيات متنقباً بين امرأتين لم يُميّز منهما لمرانه على التخنيث، وخرج من قرطبة فمات بإقليش، فكانت دولته سبعة عشر شهراً صعاباً نكدات، سوداً مشوهات».

ومن الأجدر عدم الخوض فيما حدث بعد مقتل المستكفي من أمور لا تستحق الذكر،فقد ضاق أهل قرطبة ببني أمية فقرروا عدم مبايعة أحد منهم، وتزعم أمرهم هذا الوزير أبو محمد جهور بن محمد بن جهور زعيم الجماعة وكبير قرطبة، فتولى الأمر بنفسه ليكوِّن ممالك الطوائف، أما في إشبيليه فكان القاضي ابن عباد قد انفرد بها وأظهر بيعة لهشام المؤيد مقنعاً الناس بأنه لازال حياً، وهي منكرة أخرى من المناكر الكثيرة.

قال المقري: «وانقطعت الدولة الأموية من الأرض واندثر سلك الخلافة في المغرب وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات، واقتسموا خطتها، وتغلب بعض على بعض، واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم، ولاذوا بالخزي للطاغية أن يظاهر عليهم أو يبتزهم ملكهم، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان حتى قطع إليهم البحر ملك العدوة، وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني، فخلعهم وأخلى منهم الأرض».

وحتى نستشهد على ما وصل إليه ذلك الوضع في العصور المتأخرة من انحطاط ومجون ونفاق نورد هذه القصيدة التي قالها أبو زيد الفنداقي الأشبوني في أحد خلائف تلك الحقبه:

ألبرقٍ لائحٍ من أندرين   ذرفت عيناك بالماء المعين
لعبت أسيافه عاريةً   كمخاريق بأيدي اللاّعبين
ولصوت الرّعد زجرٌ وحنين   ولقلبي زفراتٌ وأنين
وأناجي في الدّجى عاذلتي   ويك لا أسمع قول العاذلين
عيّرتني بسقام وضنىً   إنّ هذين لدين العاشقين
قد بدا لي وضح الصبح المبين   فاسقنيها قبل تكبير الأذين
اسقنيها مزة مشمولةً   لبثت في دنها بضع سنين
نثر المزج على مفرقها   درراً عامت فعادت كالبرين
مع فتيان كارم نجب   يتهادون رياحين المجون
شربوا الراح على خدّ رشاً   نوّر الورد به والياسمين
وجلت آياته عامدةً   سبج الشّعر على عاج الجبين
لوت الصّدغ على حاجبه   ضمّة اللاّم على عطفة نون
فترى غصناً على دعص نقاً   وترى ليلاً على صبحٍ مبين
وسيسقون إذا ما شربوا   بأباريق و (ماء) من معين
ومصابيح الدّجى قد طفئت   في بقايا من سوادٍ الليل جون
وكأنّ الظلّ مسكٌ في الثّرى   وكأنّ الطّلّ درٌّ في الغصون
والنّدى يقطر من نرجسه   كدموعٍ أسبلتهنّ الجفون
والثريّا قد هوت من أفقها   كقضيبٍ زاهرٍ من ياسمين
وانبرى جنح الدّجى عن صبحه   كغرابٍ طار عن بيضٍ كنين
وكأنّ الشّمس لمّا أشرقت   فانثنت عنها عيون النّاظرين
وجه إدريس بن يحيى بن علي   بن حمّود أمير المؤمنين
ملكٌ ذو هيبة لكنّه   خاشعٌ للّه ربّ العالمين
خطّ بالمسك على أبوابه: ادخلوها (بهدوء) آمنين
فإذا ما رفعت راياته   خفقت بين جناحي جبرئين
وإذا أشكل خطبٌ معضلٌ   صدع الشكّ بمصباح اليقين
فبيسراه يسار المعسرين   وبيمناه لواء السّابقين
يا بني أحمد يا خير الورى لأبيكم   كان وفد المسلمين
نزل الوحي عليه فاحتبى   في الدّجى فوقهم الرّوح الأمين
خلقوا من ماء عدلٍ وتقىً   وجميع الناس من ماء وطين
انظرونا نقتبس من نوركم   إنّه من نور .... العالمين

شعر كهذا، يمدح به خليفة، فيستهويه !!! إنه غاية الانحطاط.

نعم، إنها مأساة الأندلس صنعت بأيدي أصحابها من أجل الجاه والمال والانتقام والتشفي والسبايا والغلمان والشراب والملذات والقيان والمحظيات، وغابت في مراحل عديدة كثير من المكارم التي أمر بها الدين، مثل المروءة، ونبل الغاية والمقصد، والترفع عن الرذيلة، وعلو الهمة.

وأدلى الأعداء بدلائهم، واجتهدوا قدر استطاعتهم، ورموا بحبائلهم، فكان الماء غزيراً، والصيد سهلاً، ولنا أن نردد قول ابن رشيف:

مّما يزهّدني في أرض أندلسٍ تلقيب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكةٍ في غير موضعها كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وقبل أن ندلج إلى عصر الطوائف لن تطيب النفس دون إيراد شيء من قصة «ولاَّدة» بنت الخليفة المستكفي مع الشاعر المشهور أبي الوليد بن زيدون، ولعل هذه حسنته الوحيدة، قال ابن بسام:

«وأما ولادة التي ذكرها أبو الوليد بن زيدون في شعره فإنها بنت محمد بن عبد الرحمن الناصري، وكانت في نساء أهل زمانها واحدة أقرانها، حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يغشو أهل الأدب إلى ضوء غرَّتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، وإلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلطُ ذلك بعلُوّ نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب. على أنها – سمح الله لها، وتغمد زللها – اطّرحتِ التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، بقلة مبالاتها، ومجاهرتها بلذاتها. زعموا أنها كتبت على أحد عاتقي ثوبها:

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وكتبت على الآخر:

أُمكنُ عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها

ولها مع أبي الوليد ابن زيدون أخبارٌ طوالٌ وقِصار، يفوت إحصاؤها، ويشق اقتصاؤها.

قال أبو الوليد ابن زيدون: كنت في أيام الشباب، وغمرة التصاب، هائماً بغادة، تُدعى ولاَّدة، أرى الحياة متعلقة بقربها، ولا يزيد في امتناعها إلا اغتباطها بها، فلما قُدّر اللقاء، وساعد القضاء، كتبت إليّ:

ترقب إذا جنَّ الظلام زيارتي ... فإني رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا ... وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسر

فلما طوى النهار كافوره، ونشر الليل عنبره، وأقبلت بقدٍ كالقضيب، وردفٍ كالكثيب، وقد أطبقت نرجس المُقل، على ورد الخجل، فملنا إلى روض مدبج، وظل سَجْسَجٍ، قد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل أنهاره، ودُر الظل منثور، وجيب الراح مزرور، فلما شببنا نارها، وأدركت فينا ثارها، باح كل منَّا بحبه، وشكا أليم ما بقلبه، وبتْنا بليلة نجني أقحوان الثغور، ونقطف رمان الصدور.

فلما انفصلتُ عنها صباحاً أنشدتها ارتياحاً:

ودَّع الصَّبْرَ محبٌّ ودَّعَك ... ذائعاً من سرّه ما استودَعكْ
يقرُع السِّنَّ على أن لَم يكُن ... زادَ في تِلك الخُطَا إذ شَيَّعَك
يا أخَا البدر سَنَاءً وسَنًى ... حَفِظَ الله زَماناً أطلَعك
إن يطُل بَعدَك ليَلِي فلَكَم ... بِتُّ أشكُو قِصَرَ اللَّيلِ مَعَك

قال أبو الوليد: وكانت عُتبةُ قد غنتنا:

أحبتنا إني بلغت مؤمّلي ... وساعدني دهري وواصلني حبي
وجاء يهنيني البشير بقربه ... فأعطيته نفسي وزدت له قلبي

فسألتها الإعادة، بغير أمر «ولاَّدة»، فخبا منها برق التبسم، وبدا عارضُ التجهم، وعاتبت عتبة، فقلتُ:

وما ضَربت عتبى لذنبٍ أتت به ... ولكنما ولاَّدة تشتهي ضربي
فقامت تجُرُّ الذيل عاثرة به ... وتمسح طل الدمع بالعنم الرُّطب

فبتنا على العتاب، في غير اصطحاب، ودم المدام مسفوك، ومأخذ اللهو متروك.

obeikandl.com

فلما قامت خطباء الأطيار، على منابر الأشجار، وأنفت من الاعتراف، وباكرت إلى الانصراف، وشّتّ بمسك الأنفاس، على كافور الأطراس فقالت:

لو كنتَ تُنصفُ في الهوى ما بيننا لم تهوَ جاريتي ولم تتخير
وتركت غُصناً مُثمراً بجماله وجنحت للغصن الذي لم يثمر
ولقد علمتَ بأنني بدر السما لكن دُهيتَ لِشِقْوَتِي بالمشتري

هذه قطرة من بحر علاقة ولاَّدة بنت الخليفة المستكفي بابن زيدون الشاعر الوزير السفير، وما كانت لابن زيدون وحده محبة، فغيره في حبها نصيب ومن أولئك أبو عامر الوزير، الذي زاحمه على قلبها فألهمته المزاحمة نفث سحر شعره ونثره، والحديث عن صراعهما على قلبها يطول، والمنافسة على مآنستها راسخ لا يزول، ولنا أن نورد قصة لها مع أبي العامر الوزير تدل على ذكاء خاطرها، وحرارة نوادرها، فإنه آية من آيات فاطرها: مرت بالوزير أبي عامر ابن عبدوس وكان بقرطبة أحد أعيان المصر، وبعض من هذى باسمها، وتصرف على حكمها، وأمام داره بركة دائمة تتولد عن كثرة الأمطار، وربما استمدت بشيء مما هنالك من الأقذار، وقد نشر أبو عامر كُمَّيه، ونظر في عطفيه، وحشر أعوانه إليه، فقالت له: أبا عامر:

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر

فتركته لا يحيرُ حرفاً، ولا يرد طرفاً، وطال عمرها وعمر أبي عامر حتى أربيا على الثمانين، وهو لا يدعُ مواصلتها، ولا يغفل مراسلتها، وتحيف هذا الهرُ المستطيل حال ولادة، فكان يحمل كَلَّها، ويرقع ظِلَّها، على جدب واديه، وجمود روائحه وغواديه، أثراً جميلاً أبقاه، وطلقاً من الظرف جرى إليه حتى استوفاه».

أليس من الجميل أن نختتم هذا الجزء من المآسي، بشيء من قصص ولادة، ونظم ابن زيدون؟ وهذا من شواهد مجتمع ذلك العصر.